حروف الجر

بين

التناوب والتأويل

بقلم

د . محمد المختار محمد المهدى

مدرس اللغويات

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

حمداً لمن يستحق الحمد ، وصلاة وسلاماً على من هدانا به الله سبل المعرفة والهدى ، وعلى آله ومن سلك طريقه إلى يوم الدين . أما بعد

فقد كثر واشتهر لدى النحاة أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وركبها العامة مطية ذلولا لتمرير الخطأ فى استعمال الحرف فى غير مكانه الصحيح والمناسب للمعنى المراد ، وانتقل هذا التهاون المشين إلى ألسنة بعض الكتاب المعاصرين، وبخاصة فى مجالات الاعلام مع مافى ذلك من الخطر الدامم المؤدى إلى إفساد ملكة التذوق لخصائص اللغة ونظامها وسر فصاحتها، كما قد يتسبب ذلك فى الفصل المزرى بين هذه الأمة وتراثها الخالد .

وعلى الرغم مما كتب عن ذلك حديثاً مازال للرأى مجال والبحث فائدة ، يتبين من خلالها مدى الخلط والخطل فى هذا الاتجاه .

من هنا كان هذا البحث إسهاماً متواضعاً فى الإفصاح عن سر من أسرار العربية . وأسأل الله سبحانه أن يجنبنا الزلل وأن ينفعنا وينفع بنا إنه نعم المولى ونعم النصير ؟

د . محمد المختار المهدى

المعنى اللغوى للحرف .

إذا تأملنا مدلول الحرف فى أصله اللغوى فإننا نجده يرجع إلى ثلاثة معان جوهرية (١) حد الشىء (٢) تقديره (٣) العدول عنه . ومن المعنى الأول حد السيف : أى طرفه الحاد. ومن الثانى المحراف وهو حديدة تقدر بها الجراحات عند العلاج ، ومن الثالث الانحراف والتحريف . ومن المجاز عند الزمخشرى فى الأساس قولهم: هو على حرف من أمره أى على طرف. وفى كل هذه المعانى ندرك معنى القوة ، كما ندرك أن تسمية النوع الثالث من الكلام بالحرف يشير إلى أنه يشرب الكلام معنى القوة ، ويكسبه البيان ، ومن قوته أنه يدخل فى الكلام لضرب من الإيجاز ، فإنك إذا قلت : ماقام زيد فقد أغنت « ما » عن « أنفى » وهى جملة من فعل وفاعل .. ومن هنا كان حذفه أو إستبداله بغيره ليس داخلا فى باب القياس ؛ لأنه « إذا كانت الحروف نوائب عما هو أكثر منها من الجمل وغيرها لم يجز من بعد ذا أن تضرق عليها فتنتهكها وتجحف بها » (١)

ومن قوته أن « مقاصد كلام العرب على اختلاف صنوفه مبنى أكثرها على معانى الحروف (٢) فغيرها يحتاج إليها لأنها بمثابة الآلة والوسيلة فى الوصول إلى الهدف من الكلام ، وهى أكثر من الأسماء والأفعال فى الاستعمال » (٣) وإذن فهى مفاتيح البيان فى هذه اللغة . (٤)

المعنى الاصطلاحى

ومما يؤكد إدراك النحاة الأوائل لأهميتها فى الكلام أن سيبويه حين تحدث عنها قال: « فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل» (٥)

---

(١) راجع الخصائص حـ ٢ ص ٢٧٣، شرح المفصل حـ ٨ ص ٧

(٢) الجنى الدانى مخطوطه ورقه ٥ (٣) المخصص حـ ١٤ ص ٤٤ ، ص ٤٥

(٤) الدارس النحوية ص ٣٤٧ (٥) الكتاب جـ ١ ص ١٢

وكرر كلامه عن ذلك فى قوله : « وأما ماجاء لمعنى وليس باسم ولا فعل فنحو « ثم » و « سوف » و « واو » القسم و « لام » الإضافة ونحوها ».

غير أنه حين قدمه لنا بدلالته على معنى غير موجود فى الاسم والفعل لم يحدد لنا هل يفيد هذا المعنى بذاته ، أم يظهر معناه فى غيره ، فكما أن غيره محتاج إليه فهو محتاج دائماً إلى غيره ، ومن هنا اختلف النحاة بعده فى هذه النقطة وصارت قضيته . وإن كان فى نزهة الألباء مايفيد أن الرقعة التى كتبها الإمام على لأبى الأسود فيها أصل عبارة سيبويه إذ عبارته « الاسم : ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبىء به » والحرف ما أفاد معنى » . وجاء الزمخشري فى مفصله (١) ليرى أن الحرف يدل على معنى فى غيره ، ومن ثم لم ينفك من اسم أو فعل يصحبه . وابن الحاجب يرى ذلك أيضاً فى كافيته (٢).

ويؤكد الرضى هذا المفهوم فى موضع آخر حيث يقول : « فالحرف وحده لامعنى له اصلا إذهو كالعلم المنصوب بجنب شىء ليدل على أن فى ذلك الشىء فائدة . فاذا أفرد عن ذلك الشىء بقى غير دال على معنى أصلا ، فظهر بهذا أن المعنى الافرادى للاسم والفعل فى أنفسهما والحرف فى غيره » (٣) .

وصاحب الطراز يؤيد هذا الاتجاه ويرى أن إتصال معانى الأفعال بالاسماء يختلف باختلاف معانى حروف الجر ، وتحت ذلك أسرار ولطائف (٤) .

مع أن هذا الرأي ليس مسلما من جهة التطبيق الفعلي ، إذ يقتضى ذلك أن كل اسم وكل فعل له دلالة على معنى فى نفسه بخلاف الحرف مع أن كثيراً من من الأسماء ليس لها معنى إلا بانضمام غيرها إليها كأسماء الإشارة ، والأسماء الموصولة ، وأسماء المعانى التى لاتتصور ذهنا إلا بشىء مشخص كالقيام لايتصور إلا من قائم ، كما أن بعض الأسماء يدل على أكثر من معنى ، وهو مايسمى بالمشترك اللفظى ، والاسلوب هو الذى يحدد المعنى المقصود .. أما الأفعال فيقول عنها ابن يعيش (٥) « إن الفعل فى نفسه خبر . ولايفيد حتى تسنده إلى محدث

---

(١) شرح ابن يعيش حـ ٨ ص ٢ (٢) شرح الرضى حـ ٢ ص ٢٩٧

(٣) شرح الرضى على الكافية حـ ١ ص ١٠

(٤) الطراز ليحيى بن حمزه العلوى حـ ٢ ص ٥٣ دار الكتب العلمية ببيروت

(٥) شرحه على المفصل حـ ١ ص ٢٠ .

عنه ، وإذن فليس الحرف وحده هو الذي يظهر معناه فى غيره ، ومن هنا ذهب الفريق الآخر إلى أن دلالة الحرف على المعنى بذاته وليس بغيره ولا فى غيره كبقية الأقسام: قال بذلك ابن النحاس وأبو حيان وبهاء الدين السبكى على ما نقله السيوطى فى بغية الوعاة (١) وممن أيد ذلك الفخر الرازى فى تفسيره للفاتحة ، والفيروزابادى فى القاموس ، والإمام عبد القاهر الجرجانى فى الدلائل (٢) يؤكد هـذا الاتجاه فيقول : « لو لم يكونوا قد وضعوا الحروف لكنا نجهل معانيها ، فلا نعقل نفياً ولا نهياً ولا استفهاماً ولا استثناء . كيف والمواضعة لا تكون ولا تتصور إلا على معلوم، فمحال أن يوضع اسم أو غير إسم لغير معلوم

وعلى هـذا الرأى تستوى الأنواع الثلاثة للكلام فى إفادة كل نوع لمعناه بنفسه وذاته . وبهذا يكون للحرف أيا كان نوعه أهمية بالغة فى نظم الكلام ، أما حروف الجر على وجه الخصوص فتسميتها تشير إلى مهمتها ، فهى حروف جر عند بعضهم، وحروف إضافة عند بعضهم الآخر ، لأنها تجر وتضيف معانى الافعال وما أشبهها إلى الاسماء وتعمل فيها الجر (٣) ، وتسمى حروف الصفات عند الكوفيين لانها تحدث فى مدخولها صفة من تبعيض أو تشبيه أو نحوه(٤)

ولأنها داخلة فى مفهوم الحرف يجرى عليها ما جرى على غيرها من الحروف فى دلالتها على معنى فى نفسها أو غيرها ، وإذا أردنا الدخول إلى قضية المعانى المستفادة من حروف الجر فاننا مضطرون إلى الرجوع لكتاب سيبويه ثم لمفسريه :

معانى حروف الجر

— يقول سيبويه عن حرف الجر « على » (٥) « أما على فاستعلاء الشيء ، تقول هذا على ظهر الجبل . وهي على رأسه ، ويكون أن يطوى أيضاً مستعلياً ،

---

(١) حـ ١ ص ١٤ (٢) ص ٣٤١

(٣) الاشمونى حـ ٢ ص ٢٠٣ (٤) مقاييس اللغة حـ ٢ ص ٤٢ .

وفى ص ٦ من رسالة التجوز فى الحرف للزميل عبد الجواد طايع تفصيل لهذه النقطة وهى بكلية اللغة العربية بالقاهرة .

(٥) الكتاب حـ ٢ ص ٣١٠ .

كقولك : مر الماء عليه . وأما مررت على فلان فجري هذا كالمثل ، وعليا أمير كذلك ، وعليه مال أيضاً ، وهذا لانه شيء اعتلاه ويكون « مررت عليه » أن يريد مروره على مكانه ، ولكنه اتسع . وتقول عليه مال وهذا كالمثل كما يثبت الشيء على المكان، كذلك يثبت هذا عليه فقد يتسع هذا في الكلام ويجيء كالمثل،

والمفهوم من هذا النص أن « على » لها معنى محدد هو الاستعلاء، غاية ما في الامر أن هناك .

(١) استعلاء حسيا ثابتاً كالمثالين الاولين ، أو متحركا كالمثالين التاليين إذ قوله « ويكون أن يطوي مستعليا » معناه الانتقال والمجاوزة ، جاء في اللسان : يقال : فلان يطوي البلاد أي يقطعها بلدا عن بلد ، وطوي المكان إلى المكان: جاوزه.

(٢) واستعلاء معنوياً مجازياً كالباقي ، فالمال الذي يلتزم به المدين يكون عبئاً عليه لثقل همه فكان كما يثبت الشيء على المكان يعتليه بتعبير سيبويه . والامير حين يتولى أمور الرعية يصير مستعلياً عليهم بأوامره وسلطته،أما مررت على فلان فإن سيبويه يعلله بأنه يعني : مررت على مكانه ؛ إشارة الى معنى بلاغي وهو أن المار على انسان إما أن يكون المرور عليه سائراً وقد سبقه المار أو واقفاً وتجاوزه المار وفي هذا نوع سبق للمرور عليه بمثابة الاستعلاء

وهكذا نرى سيبويه يشير الى معنى محدد مستقل للحرف في ذاته ثم يتعمق في الاساليب التي تبدو خارجة عن هذا المعنى ليردها إليه ، مما يؤيد الرأي الثاني الذي يرى للحرف معنى في ذاته ، ذلك أنه لم يفعل ذلك في حرف واحد ، ولكن في كثير من الحروف ، ومعروف أن تطبيقه للقاعدة خير مفسر لمراده منها فهو في حرف الجر « في » مثلا يقول : (١)

« وأما « في » فهو للوعاء كقولك: هو في الجراب ، وفي الكيس ، وهو في بطن أمه ، وكذلك هو في الغسل لأنه جعله إذا أدخله فيه كالوعاء له ، وكذلك: هو في القبة وفي الدار ، وان اتسعت في الكلام فهي على هذا ، وانما يكون كالمثل يجاء به يقارب الشيء وليس مثله » .. ويشرح معنى

---

(١) جـ ٢ ص ٣٠٨

« عن » فى الصفحة نفسها بأنها لما عدا الشيء ويؤول ما يوهم خلاف ذلك فيؤول مثل : جلس عن يمينه بأنه جعله متراخيا عن بدنه ، وجعله فى المكان الذى بحيال يمينه ومثل : أضربت عنه ، تريد أنه تراخى عنه وجاوزه الى غيره وأخذته عنه أى : عدلت منه إلى حديث .

ويتحدث عن « إلى » بعد صفحتين (١) بأنها منتهى لابتداء الغاية ، ولا يتحدث عن معنى آخر لها .

هكذا اقتصر سيبويه على معنى كلى أصيل واحد للحرف لا يفارقه ، ورجع المعانى الأخرى التى ورد الحرف دالا عليها إلى هذا المعنى نفسه بطريق المجاز.

وهذا ما فهمه وصرح به ابن أم قاسم المرادى فى الجنى الدانى (٢) حيث قال : « ورد كثير من المحققين سائر معانى الباء إلى الإلصاق كما فعل سيبويه وجعلوه معنى لا يفارقها وقد تنجر معه معان أخر » .

وهكذا صار رأيا معتدا به عند كثير من المحققين فى المذهب البصرى .

أما الرأى الآخر للبصريين فهو مؤسس على كثرة الاستعمال وقلته ، وذلك أن بعض حروف الجر قد استعملت فى اكثر من معنى ، وصار العرف اللغوى يقبل ذلك بمعنى أن المتمرس بأساليب اللغه يدرك المعنى المستعمل فيه الحرف . بمجرد سماع الاسلوب وهذا ما يسمى بالتبادر الذى يجعله العلماء علامة على الحقيقة ، وبناء على ذلك فالمعانى المتبادرة الحرف والتى لا يشترك حرفان فى افادتها تعد من قبيل الحقيقة ولا داعى للتعسف فى استخراج معنى كلى يجمع بينها ، فان ذلك وارد فى اللغه فى غير الحروف فيما يسمى بالمشترك اللفظى الذى يكون اللفظ فيه واحدا ومعناه مختلفا بحسب الاساليب والمقامات ، فالعين مثلا تصلح للباصرة والبئر وهكذا كما أشرنا الى ذلك عن قريب .

---

(١) ص ٣١٠ (٢) مخطوطة رقم ٣٨١ تيمور ورقة ١٠

فـالمانع أن تكون الحروف كذلك : الباء مثلا تفيـد معنى الإلصاق والسببية والاستعانة والمصاحبة والتعدية على سبيل الحقيقة ، وان كان الالصاق أشهر ، فاذا استعمل الحرف لمعنى غير متبادر منه ولـكنه متبادر من غيره كاستعمال « فى » للاستعلاء فى الآية القـــرآنية : « ولاصلبنكم فى جذوع النخل » (١)

فـان كل البصريين يحملون ذلك على التأويل بالاستعارة أو التضمين ، ولا يقولون : إن « فى » نابت عن « على » وهذا ما رجحه الدسوقى فى حاشيته على المغنى (٢) ونصه

قيل إن مذهب البصريين أن كل حرف له معنى حقيقى واحد فقط ، ولا يأتى مثلا حرف لمعنى أخر ، وقيل إن مذهب البصريين أن لها معانى عديدة (٣) لـكن تلك المعـــانى لم يأت لها حرف آخر من حروف الجر ، مثلا : البـاء موضوعة للالصاق والسببية والتعدية لا المعانى المشهورة لغيرها ، والظاهر القول الثانى » . ثم قال : « والحاصل أن الإنابة ليست قياسية ، وماورد من الإنابة فتؤولة إن أمكن تأويله بأن يجعل من قبيل الاستعارة فإن لم يمكن حمل من باب التضمين إن أمكن وإلا حـكم بشذوذه ومخالفته للقياس » والمفهوم من قول الدسوقى « وماورد من الإنابة فتؤوله » أنه يقصد المعانى التى لاتتبادر من الحرف (٤) .

على أن المبرد وهو من البصريين يقول بالنيابة فى هـذه الآية الـكريمة . قال فى الـكامل (٥) «وحروف الخفض يبدل بعضها من بعض إذا وقع الحرفان فى معنى فى بعض المواضع قال الله جل ذكره « ولاصلبنكم فى جذوع النخل»

---

(١) ٧١ طـه (٢) حـ ١ ص ١١٩ .

(٣) يراجع فى هذا حاشية الصبان على الأشمونى

(٤) يراجع فى ذلك حاشية الخضرى على ابن عقيل ، والمغنى لابن هشام ، وبحث نيابة بعض الحروف عن بعض للشيخ حمـ وش بمجلة مجمع اللغة العربية

(٥) حـ ٢ ص ٧١

أى « على » ، ولكن الجذوع إذا أحاطت دخلت « فى » لأنها للوعاء ، يقال : فلان فى النخل أى قد أحاط به ، قال الشاعر سويد بن كاهل :

هم صلبوا العبدى فى جذع نخلة ... فلا عطست شيبان إلا بأجدعا .

هكذا ينظر المبرد إلى قضية النيابة ، وهذا مايشير إليه الدسوقى فى حاشيته أيضاً بقوله (١) « قوله : ليست بمعنى على : أى كما يقول جماعة » .

كما أن سيبويه لم يرفض فكرة النيابة فى حد ذاتها ولكنه رفض التوسع فيها بدليل قوله فى أعقاب شرحه لمعنى « عن » (٢) « وقد تقع « من » موقعها أيضاً ، تقول : أطعمه من جوع وكساه من عري وسقاه من العيمة » .

فسيبويه لايقول بها إلا فى أضيق الحدود بحيث إذا أمكن تأويل ماورد ، ورده إلى معنى واحد كان أفضل ، وإلا قال بالنيابة ، أما المبرد فانه يرى أن لامانع من النيابة مادام لها وجه معنوى ، أي وقع الحرفان بمعنى واحد ، وهذا قد يكون مستنداً لما قاله المالقى فى الرصف وسنشير إليه عن قريب ، على أن المبرد حينما يقول بالنيابة يقول بالتأويل أيضاً ولا يغفل الحديث عن الاستعارة مع النيابة فلكل حرف معناه المستقل المشهور المتبادر إلى الذهن عند نطقه ، ولكن مادامت اللغة متكاملة فان البليغ قد يستعير حرفا له دلالة خاصة مكان حرف لايفى بالمعنى المراد بلاغياً ، على أن النائب لايمحو شخصية المنوب عنه ، فلكل منهما طبيعة ودلالة ، كل مافى الأمر أن النائب أقدر فى هذا المقام على الإفصاح والبيان للمراد ، ومع هذا فظلال المنوب عنه قائمة ومعناه مقصود فى الجملة ، وهذا هو المتبع فى مفردات اللغة غير الحروف ، ولذلك لابد من علاقة وقرينة بينهما

أما الكوفيون فقد التقطوا مافى كلام سيبويه والمبرد عن الإنابة وتوسعوا فيه ، وكلما رأوا نصاً يوحى بأن هذا الحرف ليس فى مكانه المعهود فى اللغة قالوا عنه إنه من باب النيابة حتى انتهى الأمر بهم وبالمتأخرين إلى أن اعتدوا بكل

---

(١) حـ١ ص ١١٩ (٢) حـ ٢ ص ٣٠٨

معنى ورد عليه أسلوب سواء كثر هذا الإستعمال أو قل ،(١) تبادر المعنى إلى الذهن أم لا ، حتى اضطروا إلى القول بنيابة الحرف عن الظرف : ورد فى الأزهية (٢) أن « فى » تقع مكان « مع » كما فى قوله تعالى : « فادخلى فى عبادى » (٣) وقوله : « وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » (٤) وقوله : « حق عليهم القول فى أمم » (٥) وقوله : « وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات (٦) كما جاء فيها أن « فى » تقع مكان « بعد » كقوله تعالى : « وفصاله فى عامين » (٧) .

وأن « إلى » تأتى مكان (مع) فى قوله: (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم (٨) وقوله :(من أنصارى إلى الله) (١٠) وقوله (وإذا خلوا إلى شياطينهم) (١١) وأن (على) تأتى مكان (عند) كقوله سبحانه (١٢):(ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) وأن (عن) تأتى مكان (بعد) كقوله: (لتركبن طبقاً عن طبق) (١٣)، وأن اللام تأتى مكان (بعد) كقوله (أقم الصلاة لدلوك الشمس) (١٤) وأن الباء تقع مكان (مع) كقول الشاعر :

داويته بالمحض حتى شتى ∴ يجتذب الآرى بالمرود

وأن اللام تقع مكان (مع) كقول متمم بن نويرة :

فلما تفرقنا كأنى ومالكا ∴ لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

كما اضطروا إلى القول بوقوع الظرف مكان الظرف كما ورد فى الأزهية أيضاً : أن (مع) تقع مكان (بعد) كقوله: (فإن مع العسر يسرا).(١٥) وأن (بعد) تقع موقع (مع) فى مثل قوله : (عتل بعد ذلك زنيم) (١٦) وكأن بينهما تقارضاً

---

(١) راجع أوضح المسالك حـ ٢ ص ١٢٨ — ١٤٦ (٢) ص ٢٧٧
(٣) ٢٩ الفجر (٤) ١٩ النمل (٥) ١٨ الإحقاف (٦) ١٢ النمل
(٧) ١٤ لقمان (٨) ص ٢٨٢ (٩) ٢ النساء (١٠) ١٤ الصف
(١١) ١٤ البقرة (١٢) ١٤ الشعراء (١٣) ١٩ الإنشقاق
(١٤) ٧٨ الإسراء (١٥) ٥ الانشراح (١٦) ١٣ القلم

الحروف التي هي محل الخلاف :

على أن حروف الجر التي وقع الخلاف فيها بين البصريين والكوفيين في موضوع الإنابة وتعدد المعاني لاتتجاوز ثمانية أحرف ، ذلك أن حروف الجر محصورة عند النحاة بواحد وعشرين حرفاً : الثلاثة منها لاتفيد سوى الاستثناء مالم تتصل بهن (ما) ، وهي : خلا ، عدا ، حاشا وواحد ، يفيد امتناع الجواب لوجود الشرط على المشهور وهو (لولا) إذا اتصل به ضمير وحرف يفيد التعليل وبيان السبب وهو (كي) ، وحرف يفيد الترجي في لغة عقيل وهو (لعل) وحرف يفيد معنى الابتداء الذي تفيده (من) وهو (متى) عند هذيل . وحرفان للزمان الماضي وهما : مذ ، ومنذ ، وحرف يفيد التكثير كثيراً والتقليل قليلا على أرجح الآراء وهو (رب) . وحرف يفيد ماتفيده (إلى) وهو الغاية وبينهما فروق ، وهو (حتى) . وحرفان للقسم وهما الواو ، والتاء . فهذه ثلاثة عشر حرفاً لهامعان محددة لاينوب شيء منها عن الآخر اللهم إلا متى عند هذيل ، وحتى في بعض الاستعمالات أما الباقي فهو ثمانية . من ، إلى عن ، على ، في ، اللام ، الباء ، الكاف .

ورد في أمالي ابن الشجري (١) وأوضح المسالك ، (٢) والأزهية ، (٣) ورصف المباني، (٤) والمغني (٥) أن هذه الأحرف لهامعان متعددة، وأن بعضها يقع مكان الآخر ، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن قال بقياسية تلك الإنابة في بعض الحروف التي يكون معناها واحداً ولفظها متقاربا فإذا لم يكن كذلك كانت سماعية ، ورد في رصف المباني (٦) وهو يتحدث عن وقوع اللام مكان (إلى) في مثل قوله تعالى : (بأن ربك أوحى لها) (٧) وذلك قياس لأن (إلى) يقرب معناها من معنى اللام وكذلك لفظها ، فاللام أقرب الحروف لفظاً ومعنى إلى (إلى) من غيرها ، كما ورد فيه (٨) وهو يتحدث عن وقوع اللام موقع (على) : (وذلك موقوف على السماع لأن الحروف لايوضع بعضها

---

(١) من ص ٢٦٨ — ٢٧٠ (٢) ج ٢ ص ١٢٨ — ١٤٦
(٣) من ص ٢٧٧ — ٣٠٠ (٤) ص ٢٢١ ، ٢٢٢
(٥) كل حرف في بابه كما هو نظامه (٦) ص ٢٢٢ (٧) ٥ الزلزلة
(٨) ص ٢٢١

موضع بعض قياساً إلا اذا كان معنياها واحدا ومعنى الكلام الذي يدخلان فيه واحدا أو راجعاً إليه ولو على بعد ».

وفي هذا الرأى ظلال من كلام المبرد السابق . وقد مثلوا لهذه الانابة بنصوص معظمها من كتاب الله عل وجل وسنشير إليها. قالوا :

١ — من تأتى مكان على فى مثل قوله سبحانه : ونصرناه من القوم (٢) من تأتى مكان الباء فى مثل قوله سبحانه « يحفظ من أمر الله » (٣) وقوله « يلقي الروح من أمره» (٤) وقوله : تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر (٥)

من تأتى مكان (فى) فى مثل قوله سبحانه : «ماذا اخلقوا من الأرض» (٦)

من تأتى مكان «منذ» فى مثل قول زهير :

لمن الديار بقنة الحجر ∴ أقوين من حجج ومن دهر

ومن تأتى مكان (عن) فى مثل قولهم : نهيت من فلان .

٢ — إلى تأتى مكان : الباء كقول كثير :

ولقد نعوت إلى الكواعب كالدمى ∴ بيض الوجوه حديثهن رخيم

إلى تأتى مكان (فى) كقول النابغة :

ولا تتركنى بالوعيد كأننى ∴ إلى الناس مطلى به القار أجرب

(٣) عن تأتى مكان (من) كقولة سبحانه : هو الذي يقبل التوبة عن عباده(٧)

عن تأتى مكان (الباء) كقوله سبحانه « وما ينطق عن الهوى » (٨)

وقولهم : رميت عن القوس .

عن تأتى — كان(على) ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه (٩)

---

(١) ص ٢٢١ (٢) ٧٧ الانبياء (٣) ١١ الرعد (٤) ١٥ غافر
(٥) ٤ القدر (٦) ١٥ الاحقاف (٧) ٢٥ الشورى (٨) ٣ النجم
(٩) ٣٨ محمد

وقـــول ذى الأصبع العـــدوانى :

لاه ابن عمـــل لا أفضلت فى حسب ... عـــنى ولا أنت ديانى فتخزونى

٤ — على تأتى مكان (فى) كقوله تعالى : « واتبعـوا ماتلو الشياطين على ملك سليمان (١) وقوله : « ودخل المدينة على حين غفلة » (٢)

على تأتى مكان (من) كقوله تعالى : اذا اكتالوا على الناس يستوفون (٣) وقوله : من الذين استحق عليهم الأوليـان (١٣)

على تأتى مكان عن كقول حميد الارقط : أرمى عليها وهي فرع أجمع .

وقول القحيف العجلى : إذا رضيت على بنو قشير ... لعمر الله أعجبنى رضاها

٥ — فى تأتى مكان (على) كقوله تعالى: «لأصلبنكم فى جذوع النخل » (٤) وقوله « أم لهم سلم يستمعون فيه » (٥) وقول سويد بن كاهل:

هم صلبوا العبدى فى جذع نخلة ... فلا عطست شيبان إلا باجدعا .

فى تأتى مكان (من) كقوله تعالى: (ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً) (٦)

فى تأتى مكان «إلى» كقوله تعالى : فردوا أيديهم فى أفواههم » (٧) .

فى تأتى مكان(الباء) كقوله تعالى: لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم (٨) وقول زيد الخيل؛ ويركب يوم الروع فيها فوارس ... يصيرون فى طعن الأباهر والكلى

٦ — اللام تأتى مكان (إلى) كقوله تعالى : « الحمد لله الذي هدانا لهذا » (٩) وقوله «سمعنا منادياً ينادى للايمان » (١٠) وقوله « كل يجرى لأجل مسمى » (١١) وقوله : « بأن ربك أوحى لها » (١٢)

اللام تأتى مكان على كقوله تعالى « يخرون للاذقان سجدا » (١٣) وقوله« وتله للجبين» (١٤) وقول الأشعث الكندى:

---

(١) ١٠٢ البقرة (٢) ١٥ القصص (٣) ٢ المطففين (٤) ١٠٧ المائدة
(٥) ٧١ ط (٦) ٣٨ الطور (٧) ٨٤ النحل (٨) ٩ إبراهيم
(٩) ١٤ النور (١٠) ٤٣ الإعراف (١١) ١٩٣ آل عمران
(١٢) ٥ الزمر (١٣) ٥ الزلزلة (١٤) ١٠٧ الإسراء (١٥) ١٠٣ الصافات

تناولت بالرمح الطويل ثيابه ∴ تخر صريعا لليدين وللفم

اللام تأتى مكان (فى) كقوله تعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » (١)

اللام تأتى مكان من . كقولهم : سمعت لزيد صياحاً .

٧ ــ الباء تأتى مكان : من كقوله سبحانه « يشرب بها عباد الله » (٢) وقول أبى ذؤيب الهذلى: شربن بماء البحر ثم ترفعت ∴ متى لجج خضر لهن نئيج

الباء تأتى مكان (عن) كقوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » (٣) وقوله : فاسأل به خبيراً . (٤) وقول علقمه بن عبدة .

فإن تسألونى بالنساء فانى ∴ بصير بأدواء النساء طبيب

وقول عنترة : هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ∴ إن كنت جاهلة بما لم تعلمى

الباء تأتى مكان (على) كقوله تعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائماً » (٥) .

الباء تأتى مكان (فى) كقوله : « السماء منفطر به » (٦) وقوله : « وما كنت بجانب الغربى » (٧)

٨ ــ الكاف تأتى مكان اللام كقوله تعالى : «واذكروه كما هداكم » (٨)

الكاف تأتى بمعنى (على) نقل صاحب الأزهية (٩) عن الأخفش سعيد فى كتاب المسائل فى قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت » (١٠) أى على ما أمرت ، وقولهم : دعه كما هو أى على الذى هو .

---

(١) ٤٧ الأنبياء (٢) ٦ الإنسان (٣) ١ المعارج
(٤) ٥٩ الفرقان (٥) ٧٥ آل عمران (٦) ١٨ المزمل
(٧) ٤٤ القصص (٨) ١٩٨ البقرة (٩) ص ٣٠٠ (١٠) ١١٢ هود

والمتأمل فى هذه الأبيات وأمثالها يستريح مؤقتاً لهذا التفسير السطحى، ولكنه لابد أن يسأل نفسه : لماذا ناب هذا الحرف عن ذاك فى هذه الآية ؟ ولماذا لم يعبر بالحرف الأصلى؟ إن هذا التقارض بين تلك الحروف — لو قلنا به هنا — لا يمكن أن يستعمله القرآن الكريم وفصحاء العرب إلا لملحظ ومعنى يتفق مع ، بلاغة تلك الأساليب ،اولأن مسار اللغة لا يمكن أن يسيغ ذلك إلا لعلة ، فجمهور كلامها على غير ذلك ولا يقاس إلا على الأكثر .

وكأن هذه الأسئلة قد طافت بأذهان النحاة من قبل .

فابن عصفور يسوق استعمال «على» موضع «عن» وموضع «اللام» وموضع «الباء» وموضع «مع» واستعمال «فى» مكان «الباء»، «وعن» مكان «بعد»، و«من» مكان «إلى» و«إلى» مكان «من» فى كتاب الضرائر(١) ثم يقول: « وإنما أورد هذا النوع فى الضرائر وإن كان قد جاء فى الكلام لأن مجيئه فى الشعر كثير واسع ومجيئه فى الكلام قليل لا يجوز القياس عليه » .

والحريرى فى درة الغواص(٢) يقيد هذا الاستعمال بأنه جوز فى المواطن التى ينتفى فيها اللبس ولا يستحيل المعنى الذى صيغ له اللفظ . وابن جنى يستشعر مدى السذاجة فى القول بنيابة حرف عن حرف باطلاق ويعقد بابا فى الخصائص (٣) يسميه: «باب استعمال الحروف بعضها مكان بعض » : ويصرح بأن هذا باب يتلقاه الناس مغسولا ساذجا من الصنعة ، وما أبعد الصواب عنه ، وذلك أنهم يقولون : إن «إلى» بمعنى « مع » محتجين بقول الله : « من أنصارى إلى الله » أى : مع الله و « فى » بمعنى «على» محتجين بقوله : «ولأصلبنكم فى جذوع النخل» أى عليها

ثم يقول : « ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا ، لكنا نقول : إنه يكون بمعناه فى موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية إليه والمسوغة له فأما فى كل موضع وعلى كل حال فلا ، ألا ترى أنك إن أخذت بظاهر هذا القول غفلا هكذا لزمك عليه أن تقول : سرت إلى زيد ، وأنت تريد معه ،

---

(١) الضرائر ص ٢٣٢ إلى ص ٢٣٩ (٢) ص ٢٣٠ (٣) ج ٢ ص ٣٠٦

وأن تقول : زيد فى الفرس وأنت تريد : عليه ، وأن تقول : رويت الحديث بزيد ، وأنت تريد : عنه ، ونحو ذلك مما يطول ويتفاحش » ثم يضع لذلك قاعدة تسوغ مجيء هذه الحروف فى هذه المواطن بذاتها ، ولا تجعل ذلك قياساً يصل إلى هذا الفاحش ، فيتكلم عن باب التضمين ، ثم يعقب عليه (١) بقوله : « فقس على هذا فانك لن تعدم إصابة بإذن الله ورشدا » .

ويؤيد ابن القيم ما سبق أن قاله ابن جنى ، فى بدائع الفوائد(٢) بأن من يقول بنيابة حرف عن حرف هم ظاهرية النحاة ، اما فقهاء أهل العربيه فلا يرتضون هذه الطريقة ، بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره ، ويتكلم عن باب التضمين أيضاً .. ويقول :

وهذه طريقة إمام الصناعة سيبويه رحمه الله وطريقة حذاق اصحابه : يضمنون الفعل معنى الفعل ، لا يقيمون الحرف مقام الحرف ، وهذه قاعدة شريفة جليلة المقدار تستدعى فطنة ولطافة فى الذهن . » ويحدد ابن هشام نسبة كل رأى إلى صاحبه فيقول فى المغنى(٣) : « مذهب البصريين أن آخر أحرف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس كما أن أحرف الجزم وأحرف النصب كذلك وما أوهم ذلك فهو عندهم إما مؤول تأويلا يقبله اللفظ كما قيل فى « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » ان « فى » ليست بمعنى « على » ولكن شبه المطلوب لتمكنه من الجذع بالحال فى الشىء ، واما على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف ، وإما على شذوذ انابة كلمة عن أخرى ، وهذا الأخير هو محل الباب كله عند أكثر الكوفيين ، وبعض المتأخرين لا يجعلون ذلك شاذاً ، ومذهبهم أقل تعسفاً » .

وبالرغم من أن ابن هشام ينسب القول بالتأويل والتضمين إلى جمهور البصريين ، والقول بالشذوذ إلى أكثر الكوفيين ، والقول بجواز الانابة بالشذوذ إلى بعض المتأخرين ، نراه يميل إلى رأي هؤلاء المتأخرين ويطبق

---

(١) جـ ٢ ص ٣١٣ (٢) جـ ٢ ص ٢٤٤ (٣) جـ ١ ص ١١١

ذلك فى كتابه أوضح المسالك شرح ألفية ابن مالك لأنه كما قال : أقل تعسفا مع أن هذا التعبير يوحى بأن فيه تعسفاً قليلا ، ومع كل ذلك فهو يشرح التضمين فى المغنى فى ثلاثة مواضع : فى الأمور التى يتعدى بها القاصر ، وفى التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين ، وفى القاعدة الثالثة من الأمور الكلية التى يتخرج عليها مالا ينحصر من الصور الجزئية ، وينهى كلامه بقوله : وهو كثير ، قال أبو الفتح فى كتاب التمام : أحسب لو جمع لجاء منه كتاب يكون مئين أوراقاً . ويعلق الدسوقى فى حاشيته(١) على كلامه ذلك بأنه ربما يؤيد القول بأن التضمين قياسى . ولذلك فانى أميل إلى أن رأى ابن هشام غير محدد هل هو مع البصريين أم مع بعض المتأخرين ؟ ! !

وتطبيقاً على ذلك أسوق بعض النصوص القرآنية التى سبق أن ذكرناها مثالا للتناوب عند من قال به وما وجه به المفسرون خروج الحرف فيها على غير وضعه المعتاد فى اللغة :

— قال تعالى : « ونصرناه من القوم الذين كذبوا »(٢) يرى أبو السعود أن النصر هنا مستتبع للانتقام من الكفار والانتصار عليهم ، وكان النصر متضمنا معنى الانتقام لأن الإصرار على تكذيب الحق مما يوجب الهلاك قطعا وقوله : « إنهم كانوا قوم سوء » تعليل لما قبله من الانتقام ونصر الرسول ، وتمهيد لما بعده من اغراقهم جميعا .

— قال تعالى : « عينا يشرب بها عباد الله »(٣) علل الشيخ سليمان الجمل فى حاشيته على الجلالين(٤) ذلك بوجوه منها تضمين يشرب معنى « يرتوى » أو معنى « يتلذذ » وجعلها الزمخشرى فى الكشاف(٥) على معناها الأصلى على أساس أنهم يمزجون الخمر بالماء كما تقول شربت الماء بالعسل . وفى الهمع(٦) مثل ذلك .

---

(١) جـ ٢ ص ٣٠٧ (٢) ٧٧ الأنبياء (٣) ٦ الإنسان
(٤) جـ ٤ ص ٤٥٤ (٥) جـ ٤ ص ١٩٦ (٦) جـ ٢ ص ٢١

ـ قال تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع » (١) فى البحر(٢) أنها بمعنى دعا من قولهم دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه ، وفى الكشاف(٣) أنها مضمنة معنى دعا أو عنى واهتم .

ولعل من حق القارىء أن نضع أمامه بعض النصوص العربية التى وقف فيها النحاة إلى توجيه نيابة الحرف مكان غيره ، مع استبعاد فكرة التضمين البصرية مؤقتاً ، لنزيح عن ذهنه فكرة التناوب العشوائية التى يلجأ إليها الآن بعض الكتاب الذين يدعون التجديد ويتشوفون إلى الشهرة .. ولعل ابن جنى فى الخصائص ، من أمهر العلماء فى ذلك .

لقد وجه ابن جنى(٤) مثلا قول القحيف العقيلى :

إذا رضيت على بنو قشير ∴ لعمر الله أعجبنى رضاها

بأنها إذا رضيت عنه أحبته وأقبلت عليه فلذلك استعمل «على» بمعنى «عن» ثم حكى استحسان أبى على لقول الكسائى إن « رضى » القميص « سخط » فحملت عليها . ووجه قول دوسر بن غسان اليربوعى :

إذا ما امرؤ ولى على بوده ∴ وأدبر لم يصدر بادباره ودي

بأنه إذا ولى عنه بوده فقد استهلكه عليه كقولك : أهلكت على مالى وأفسدت على ضيعتى ، وأنه استعمل « على » هنا لأنه أضر عليه لا له . ووجه قول عوف بن الخرع :

شدوا المطى على دليل دائب ∴ من أهل كاظمة بسيف الأبحر

بأنه على حذف مضاف ، أى شدوا المطى على دلالة ، لا كما قالوا : إن « على » بمعنى « الباء » ، وقوى حذف المضاف أن لفظ الدليل يدل على

---

(١) ١ المعارج (٢) جـ ٨ ص ٣٣٢ (٣) جـ ٤ ص ١٥٦

(٤) الخصائص جـ ٢ ص ٣١١

« دلاله » مثل « سر على اسم الله » . والجار والمجرور « على دلالة دليل » و « على إسم الله » فى موضع حال من الضمير فى « سر » و « شدوا » وليس حرف الجر فيها موصلا للفعلين بل متعلق بمحذوف .

— ووجه قول عنترة :

بطل كأن ثيابه فى سرحة ∴ يحذى فعال السبت ليس بتوءم

على أن هذا من طريق المعنى بمنزلة كون الفعلين أحدهما فى معنى صاحبه ، من حيث كان معلوما أن ثيابه لاتكون داخل السرحة إذ هي لاتنشق فتستودع الثياب ولاغيرها وهى بحالها .

هكذا يتفق من يقول بالتضمين والتأويل ومن يقول بالنيابة على أنه لايستعمل حرف مكان غيره إلا لعلة معقولة ووجه معنوي مقبول ، فليس إذن على عواهنه .

وإذا كان لنا أن نقف مع أحد الرأيين فإننا نرجح باطمئنان رأى البصريين القائلين بالتضمين أو المجاز ، ذلك أن الكوفيين يقررون أن مخرج على نظام اللغة العام فى هذا الباب شاذ يحفظ ولا يقاس عليه ، مع أن منطقهم فى غير هذا الباب على ماعرف عنهم أنهم يقيسون على ماسمع ولو كان قليلا .

أما البصريون فانهم لايرون التجوز فى الحروف على وجه الخصوص ، فان ذلك غير مألوف فى حروف النصب والجزم فكذلك حروف الجر ، وهم كذلك يرون أن حرف الجر موصل لمعنى الفعل إلى الاسم فان كان هناك تجوز فالواجب أن يكون فى معنى الفعل لا فى الموصل بينه وبين الاسم

قال الرضى فى شرح الكافية (١) « إذا أمكن فى كل حرف جريتوهم أنه مجاز أو زائد أن يجرى على معناه ويضمن فعله مايستقيم به الكلام فهو الأولى بل الواجب ».

---

(١) حـ ٢ ص ٣٢٠ فى نهاية حديثة عن حروف الجر .

مراجع البحث

- كتاب سيبويه تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون
- الخصائص لابن جنى تحقيق محمد على النجار
- شرح المفصل لابن يعيش تصحيح جماعة من علماء الأزهر
- شرح الرضى على كافية ابن الحاجب الطبعة الاولى
- شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك مطبعة عيسى الحلبى
- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام تحقيق محمد محيى الدين
- حاشية الدسوقى على مغنى اللبيب مطبعة المشهد الحسينى
- المخصص لابن سيده
- القاموس المحيط للفيروزابادى
- أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك لابن هشام
- الجنى الدانى فى حروف المعانى لابن أم قاسم المرادى
- بغية الوعاة للسيوطى
- دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى
- مقاييس اللغة لابن فارس
- حاشية الخضرى على ابن عقيل
- الكامل للمبرد
- الأزهية فى علم الحروف للهروى تحقيق عبد المعين الملوحى بدمشق
- رصف المبانى فى شرح حروف المعانى للامام المالقى تحقيق أحمد محمد الخراط
- درة الغواص فى أوهام الخواص للحريرى تحقيق محمد أبو الفضل براهيم
- بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية طبعة منير الدمشقى
- أمالى ابن الشجرى
- المدارس النحوية للدكتور شوقى ضيف
- مجلة مجمع اللغة العربية العدد الأول
- الضرائر لابن عصفور تحقيق السيد إبراهيم محمد